تجلّيات الاستلزام الحواري في قصص "جميلة زنير"
"أصابع الاتهام" أنموذجا

أ/ محمد بولخطوط
جامعة جيجل

الملخص:

إنّ النّاس في الحياة مختلفون من حيث أجناسهم وألوانهم وطبائعهم ومعاملاتهم، بل حتّى في كلامهم؛ فمنهم من يقول ما يقصد، ومنهم من يقصد بكلامه أكثر ممّا يقول، وهناك صنف آخر قد يقصد عكس ما يقول تماما، من أجل ذلك وجب أن يكون التحاور بين المتخاطبين ضمن مقام معين، يحكمه سياق محدّد يضبط الاستعمال اللغوي داخل السلسلة التواصلية، ولعلّ ذلك ما ينتج في ذهن المخاطَب استلزاما يحاول من خلاله الوصول إلى مراد المتكلّم، وهذا هو مدار اهتمام البحث التداولي؛ إذ يُعْنَى بكيفية فهم النّاس لبعضهم البعض، وإنتاجهم لفعل تواصلي كلامي في إطار موقف ملموس، لأنّه لا قيمة للكلام داخل العملية التواصلية حينما يكون بعيدا عن السياق والظروف المختلفة المحيطة به، وكذا زمان ومكان التخاطب، كلّ ذلك من شأنه أن يوضّح مقاصد المتكلّم والمعاني المطلوب إيصالها للمخاطَب. ولعلّ هذا ما سنقوم باستنطاقه في هذا البحث من خلال العمل القصصي "أصابع الاتّهام" لجميلة زنير. من هنا أمكن للسائل أن يتساءل فيقول: كيف يمكن للمتكلّم أن يتكلّم بشيء ويقصد شيئا آخر، ثمّ كيف يمكن في المقابل للمخاطَب أن يسمع شيئا ويفهم شيئا آخر، وهل للمقام أهمية في وصول المخاطَب إلى مقصد المتكلّم؟

الكلمات المفتاحية:

التداولية، الاستلزام، الحوار، اللامباشرة (المعنى المبطّن المضمر)، التلميح، انتهاك قواعد مبدأ التعاون.

Abstract:

People can be very different based on so many facts and criteria such as their race, color and behavior. Even in their speech they can vary in the sense that some say what they mean, while others use speech acts, as they mean more than what they actually say, expressing their intentions by focusing on the unsaid rather than the said. Another type, however, can bizarrely mean the complete opposite of what they say. Consequently, it is highly important that every dialogue or conversation between two or more interlocutors must run within a specific context that helps adjust and define the use of language in the communication chain. This, in turn, is what creates a compulsory task for the hearer to comprehend the message beyond the speaker's words. Deliberative research concentrates its attention on how speakers understand each other and how they use speech acts to communicate and convey a specific message in a given context. The main reason behind the attention given to this topic is that pragmatically speaking, no speech in any conversation is Meaningful unless it is contextualized, giving the circumstances, place, time, topic, and even the relationship between the interlocutors themselves. In this research paper we are going to address this issue through the story of jamila Zenir entitled "Pointing Accusing Fingers".

One could simply ask how it is possible for a speaker to say something and mean another, on the one hand, and for a listener to hear something and understand another, on the other hand. This is in addition to the important question of whether not the context of a conversation plays a major role in helping the hearer get the message of the speaker.

Keywords:

deliberation, invocation, dialogue, indirectly implied meaning, Hinting, violation of the rules of cooperation.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

*** مفهوم التداولية:**

ممّا لا شكّ فيه أنّ محاولة الإلمام بتعريف شامل ودقيق للتداولية من الأمور الصعبة، لسعة مجالها في المنظومة الفكرية الحديثة، وربّما قد تكون لنشأتها غير المستقرّة أيضا دخل في ذلك، بل وقد يكون ذلك راجعا أساسا إلى التداخل والتمازج التي عرفته التداولية مع العديد من التخصصات المتقاربة منها وغير المتقاربة، على غرار: اللسانيات والسيميائيات وعلم الدلالة وتحليل الخطاب والأسلوبية وتعليمية اللغة والنحو الوظيفي وغيرها من العلوم الأخرى، وعلى الأرجح أن يكون مصدر الصعوبة التي تصادف من يريد وضع تعريف للتداولية يتمثّل في تعدّد التسميات العربية المقابلة للمصطلح الأجنبي Pragmatique حيث لم تعرف التداولية مصطلحا عربيا قارا يشمل مقولاتها ومجالاتها المتعدّدة فقيل عنها: البرغماتية، البراغماتيك، البرجماتية، البراجماتيك، الذّرائعية، الوظيفية، الاستعمالية، التخاطبية، السياقية، التبادلية والنفعية...وغيرها من المصطلحات العربية الكثيرة التي تقابل مصطلحا أجنبيا واحدا، بيد أنّ أفضل مصطلح هو التداولية، لكونه المصطلح الأكثر شيوعا بين الدارسين والباحثين في ميدان اللغة واللسانيات هذا من جهة، ولأنّه يحيل على معنى التفاعل والحوار والخطاب والتخاطب والتواصل والتداول بين الأطراف المتلفظة من جهة أخرى، ولعلّ كلام "طه عبد الرحمن" خير دليل في هذا المقام حيث نجده يقول: «وقد وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح التداوليات مقابلا للمصطلح الغربي براغماتيقا، لأنّه يوفي المطلوب حقّه، باعتبار دلالته على معنيين "الاستعمال" و"التفاعل" معا، ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم»[1]، وها هو "خليفة بوجادي" يؤكد من جهته على أنّ عدم استقرار مفهوم التداولية، إنّما يرجع ذلك إلى الفوضى

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

المصطلحية التي عرفها العلم قائلا: «ومن أسباب عدم استقرار المصطلح العربي على صيغة واحدة، عدم استقرار مفهوم التداولية نفسه وموضوعها في تيّار واحد، وربّما عكس الاصطلاح البيئة التي نشأ فيها أو الظّروف الثّقافية التي يحملها»[2] .

بعيدا عن الخلاف الشديد الواقع في تعريف التداولية من جهة، واجتنابا للحشو والاستطراد الذي لا طائل منه من جهة أخرى، نعرض ها هنا بعض التعريفات التي قُدِّمت لهذا المصطلح كما يلي:

انطلقت تعريفات التداولية من التعريف البدائي لها ومفاده أنّ التداولية هي: «العلم الذي يعالج علاقة العلامات بمؤولاتها»[3]، ولعلّ هذا ما يمكن اكتشافه من خلال المفهوم الذي جاء به "الجيلالي دلاش" للتداولية، وفيه يقول معرفا أيّاها: «إنّه تخصّص لساني يدرس كيفية استخدام النّاس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يُعْنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث»[4]،ثمّ يضيف قائلا: «هي لسانيات الحوار أو المَلَكة التَّبليغيّة»[5].

يفهم من خلال هذا القول: إنّ التداولية فرع من علم عام هو اللسانيات، يبحث في «كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم، أو هو دراسة معنى المتكلّم»[6]، فقول القائل مثلا "أنا عطشان" قد يعني: احضر لي كوبا من الماء، هذا يعني أنّ كلام المتكلّم في هذه الحالة ليس بالضرورة أن يكون إخبارا فقط بأنّه عطشان، فالمتكلّم كثيرا ما يعني أكثر ممّا تقوله كلماته، وعليه فإنّ التداولية لا تهتمّ بالجانب التواصلي فحسب، بل تُعْنى بالكلّ الذي يحقّق التداول أو التواصل التفاعلي، إذن فهي تدرس اللغة في إطار الاستعمال (علم اللغة الاستعمالي)، وعند هذه النقطة تكمن أهمية التداولية في

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

كونها تُعنى بـ «إيجاد القوانين الكلّية للاستعمال والتعرّف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير التداولية من ثَمَّ جديرة بأن تسمى علم الاستعمال اللغوي»[7].

من هنا فإنّ مفهوم التداولية يتعدّى حدود البنية اللغوية، لتبحث في الأقوال والعلاقة بين المتخاطبين في سياق معيّن، فتدرس العناصر الذاتية في الخطاب كالضمائر والمبهمات الزمانية والمكانية، ومظاهر التصريح والتلميح والإظهار والإضمار في العملية التواصلية الإبلاغية، وكذا القوانين التي تضبط الخطاب والحجاج، كما تحاول التداولية إعطاء تفسيرات دقيقة حول كيفيات إنتاج القول، وتفسير مقاصده وغاياته.

2/– نشأة التداولية ومهامها:

يمكن أن نجمل نشأة التداولية وتطوّرها في مرحلتين محوريتين هما[8]:

أ ـ مرحلة الإرهاصات مع الفيلسوف والسيميائي الأمريكي "شارل ساندرس بيرس Charles Sanders Peirce " وكذا "فينجنشتاين Wittgenstein ".

ب ـ مرحلة الاكتمال والنضج: مع "أوستين"(Austin) الذي تأثّر بـ "فينجنشتاين"، وكذلك عند "سيرل".(Searle)

ومن المنظرين الأعلام الممثلين للتداولية نجد فيلسوفين وهما "أوستين" و"سيرل" ، وعالم الاجتماع وهو "غوفمان" (Goffman)، وكذلك نجد عالما متخصّصا في اللسانيات الاجتماعية الإثنولوجية هو "غمبرز" (Gumperz)، وتضاف إلى هؤلاء مدرسة ذات توجّه نفسي أساسا هي مدرسة "بالو ألتو" (Pulo Alto)[9].

أمّا عن مهامها فللتداولية مهمتان أيضا هما[10]:

1 ـ تحديد الأعمال اللغوية المهمّة، وذلك هو تحليل الأعمال المتضمنة في الأقوال.

2 ـ تعيين خصائص سياق التلفظ الذي يحدّد أيّ القضايا يعبّر عنها بجملة معطاة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

3/– النظريات التداولية:

تقوم التداولية على ثلاث أسس جوهرية متكاملة هي: اللغة، المقام والمقصد، وعلى هذه الثلاثة انصبّ اهتمام كل ما تفرّع عنها من نظريات، فإذا كانت التداولية قد انبنت على فلسفة اللغة، فإنّ جميع النظريات التي تندرج ضمنها تقوم على الفلسفة؛ فنظرية الأفعال الكلامية التي تعنى باللغة تقوم على فلسفة اللغة العادية أو الطبيعية، ونظرية الاستلزام الحواري والتي تهتمّ بالمقام فتقوم أساسا على فلسفة "غرايس Grace " (مبدأ التعاون)، في حين تقوم النظرية المقصدية ومحور اهتمامها المقصد على الفلسفة الظاهراتية، بينما ترتكز نظرية الملاءمة على علم النفس المعرفي.

هذا وسيتمّ في هذا البحث تسليط الضوء على إحدى أهمّ النظريات التداولية ألا وهي: نظرية الاستلزام الحواري، وكتمهيد بسيط لهذه النظرية ارتأى الباحث أن يقيم موازنة بين أنواع الفعل الكلامي والذي هو: «كلّ ملفوظ يفضي التلفظ به في شروط معينة إلى حدث أو فعل ينتج هذا الفعل آثارا قد تكون لغوية وقد تكون غير لغوية»[11].

وعلى هذا الأساس يمكن التمييز بين نوعين من الفعل اللغوي:

1 ـ **الفعل الكلامي المباشر**:هو الحدث الكلامي أو الخطابي الذي يدلّ عليه ملفوظ معين دلالة مباشرة وحرفية، مثل قولنا: "اخرج" التي تعني أمر أحدهم بمغادرة المكان، أو قولنا "كم الساعة" التي تعني طلب الحصول على معرفةٍ بخصوص الوقت، وعلى هذا فإنّ الفعل الإنجازي المباشر هو الذي يعتمد المتكلّم من أجل تحقيقه، والمخاطَب من أجل اكتشافه والتعرف على ما تحتويه البنية اللسانية الشكلية للملفوظ مباشرة[12].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

وببساطة فإنّ الفعل الكلامي (اللغوي) المباشر (الحرفي/ الصريح/ معنى الاقتضاء) إنّما يتحقّق حينما يستنبط المستمع من العبارة اللغوية المنجزة ما يقصده المتكلّم منها مباشرة، بحيث يكون قصد المتكلّم واضحا من العبارة، وهو نفسه الذي يفهمه المتلقي (لا يقول شيئا ويقصد شيئا آخر من قوله)، مثال ذلك: "لا تقترب من النّار"، عبارة إنجازية يوجّهها الأب لابنه في مقام النّهي؛ فالأب هنا يقصد من هذه العبارة تحذير ابنه ونهيه عن الاقتراب من النّار، وهو المعنى ذاته الذي يتوصّل إليه الابن، والذي يقوم بتحويل هذا القول إلى فعل لغوي من خلال ابتعاده عن النّار.

2 ـ **الفعل الكلامي غير المباشر**: نصادف في الحياة كثيرا من العبارات لا يتطابق معناها الدلالي مع المعنى الذي رغب المتكلّم في التعبير عنه، من مثل قولنا: "صباح الخير" في مقام معين لا يتناسب مع استخدام العبارة للتحيّة الصباحية، وإنّما قد يفصح المقام عن استخدام هذه العبارة للسخرية والتهكّم، وفي هذه الحالة نقول عن المتكلّم إنّه قد حقّق فعلا إنجازيا غير مباشر، عندما يحقّق في الواقع فعلين لغويين إنجازيين مختلفين من خلال ملفوظ واحد، كأن يقول مثلا: "هل تستطيع أن تناولني الملح"، ويكون قصده ليس للسؤال الذي هو القوّة الإنجازية الحرفية المباشرة لأسلوب الاستفهام، وإنّما هو الالتماس[13].

وعليه فإنّ الفعل الكلامي غير المباشر (غير الحرفي، الضمني، معنى الاستلزام) إنّما يتحقّق حينما لا يتطابق المعنى الدلالي للعبارة اللغوية، مع المعنى الذي يرغب المتكلّم في التعبير عنه، بمعنى أنّ المتكلّم هنا يقول شيئا ويقصد به شيئا آخر غير ما قاله، مثال ذلك قول المتكلّم لآخر في وقت متأخر من الليل داخل غرفة واحدة: "إنّي متعب"، فمعنى المتكلّم هنا ليس هو الإخبار بالتعب فحسب، وإنّما يريد بطريقة غير مباشرة ـ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

ربّما بهدف عدم إحراج المتحدّث ـ أن يعلمه بضرورة التوقف عن الكلام، وكأنّه يريد أن يقول له مثلا: دعني أنام، وهذا المعنى ـ في الحقيقة ـ لا يُستقَى من البنية وحدها وهي الجانب اللغوي منه، بل من الجانب السياقي أيضا، وهذا ما يعرف عند "بول غرايس" بـ: الاستلزام الحواري(*).

4/– الاستلزام الحواري (تداولية من الدرجة الثانية):

يعدّ الاستلزام الحواري واحدا من أهمّ الجوانب في الدرس التداولي، فهو ألصقها بطبيعة البحث فيه، وأبعدها عن الالتباس بمجالات الدرس الدلالي؛ إذ ترجع نشأة البحث فيه إلى تلك المحاضرات التي ألقاها زعيم النظرية "بول غرايس" في جامعة "هارفارد" عام 1967م، حيث قدّم فيها بإيجاز تصوّره لهذا الجانب من الدرس، والأسس المنهجية التي يقوم عليها. وكانت نقطة الانطلاق عند "غرايس" هي: أنّ النّاس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر ممّا يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كلّ بحثه من أجل إيضاح الاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد؛ إذ ما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بصيغتها اللفظية، وما يقصد هو ما يريد المتكلّم أن يبلّغه للسامع على نحوٍ غير مباشر، اعتمادا على أنّ السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلّم، بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، فأراد أن يقيم مبدأ بين ما يحمله القول من معنى صريح، وما يحمله من معنى متضمن، فنشأت عنده فكرة الاستلزام(14).

إنّ ما كان يشغل تفكير "غرايس" هو: كيف يكون ممكنا أن يقول المتكلّم شيئا ويعني شيئا آخر؟، ثمّ كيف يكون ممكنا أيضا أن يسمع المخاطَب شيئا ويفهم شيئا آخر؟ ولأجل ذلك وجد حلا لهذا الإشكال وهو ما أسماه بـ: مبدأ التعاون بين المتكلّم

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

والمخاطَب، وهو مبدأ حواري عام، يشتمل على أربعة مبادئ (قواعد) تضبط التخاطب في المقامات العادية، ويقترح "غرايس" أن توصف ظاهرة الاستلزام التخاطبي انطلاقا من مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه، باعتبار أنّ مصدر الاستلزام هو الخرق المقصود لإحدى القواعد الأربعة، مع احترام المبدأ العام وهو مبدأ التعاون[15].

5/- مبدأ التعاون وقواعده:

يعدّ مبدأ التعاون كما سبقت الإشارة سلفا مبدأً فلسفيا، أدخله "غرايس" إلى التداولية وقال بأنّ نجاعة الخطاب والوصول إلى حوار مثمر، لا يمكن إلاّ من خلال هذا المبدأ، والذي يتفرّع بدوره إلى أربع قواعد أو كما تسمى أيضا بالأسس والمسلمات، والاستلزام الحواري إنّما يحصل في حالة ما إذا كان هناك خرق لإحدى هذه القواعد، أو انتهاك لشرط من الشروط التي تنبني عليها، أمّا إذا طبّقت هذه الشروط دون أن يكون هناك خرق أو انتهاك تحقّق حينها الفعل اللغوي، وعلى الرغم من انتفاء أحد مسلمات هذا المبدأ الحواري العام، إلاّ أنّ هذا لا يمنع البتة تحقّق "مبدأ التعاون".

يسهم هذا المبدأ العام في تسهيل التفاهم وتحقيق التأثير وإنجاز الفعل، ويجب على المتكلّم «أن يراعي المخاطَب في كلّ ما يأتي ويدّعي لغويا ونفسيا واجتماعيا وثقافيا، بل إنّه يُسَخِّر في ذلك ما يعين في التبليغ بالإشارة والملامح...ليجد من المخاطَب نفسه متعاونا متمثلا في الإصغاء ومحاولة الفهم»[16].

من هنا يؤدي "مبدأ التعاون" إلى التواصل التفاعلي بين المتخاطبين عن طريق اللغة، ويجمع هذا الفعل عمليتين متوازيتين هما: الإنتاج والتأويل، يحيل «الإنتاج إلى التلفّظ الذي يرتبط بالمتكلّم بالدرجة الأولى، في حين يتطلّب التأويل من المتلقي الاستناد إلى عدّة وسائل لسانية وغير لسانية»[17].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

صيغته: «اجعل تدخلك مطابقا لما يقتضيه الغرض من الحوار الذي تساهم فيه، في المرحلة التي تتدخّل فيها»[18].

قواعده: ينبني "مبدأ التعاون" على مبادئ أو قواعد أربع وهي[19]:

1 ـ مبدأ الكم: اجعل مساهمتك إبلاغية بقدر ما يطلبه الأمر (للغرض الحالي للتبادل)، لا تجعل مساهمتك إبلاغية أكثر ممّا يتطلّبه الأمر.

2 ـ مبدأ الكيف: لا تقل ما تعتقد أنّه زائف، ولا تقل ما ينقصك الدليل الكاف عليه.

3 ـ مبدأ المناسبة: كن وثيق الصلة بالموضوع.

4 ـ مبدأ الطريقة: تحاشَ غموض التعبير، تحاشَ اللبس، كن موجزا (تحاشَ الإسهاب غير الضروري)، كن منظّما.

ملاحظة: يسمى مبدأ الكم أيضا الكمية، ومبدأ الكيف: النوعية، ويسمى مبدأ المناسبة كذلك بمبدأ الورود أو الملاءمة أو الصلة، في حين يسمى مبدأ الطريقة بمبدأ الكيفية وكذا بالأسلوب.

* تمظهرات الاستلزام الحواري في نصّ قصّة "أصابع الاتّهام":

ملخص القصّة:

تروي الأديبة الجزائرية "جميلة زنير" في عملها هذا "أصابع الاتّهام" قصّة فتاة فقيرة وحيدة تدعى "زينة"، إبّان فترة الاستقلال؛ هذه الصبيّة التي كان قدرها المشؤوم ظلاّ يلاحقها أينما حلّت وحيثما ارتحلت، تقاوم حينا أصابع الاتّهام، وترضخ حينا آخر لواقعها المحتوم، اجتمعت فيها دفعة واحدة كلّ اللعنات التي يمكن أن تحلّ بفتاة، بعائلة، بمجتمع أو بوطن...

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

تهاوت بها رياح الحياة ذات اليمين وذات الشمال، انتقلت وأمّها وخالتها "العانس" من القرية بعد مصرع والدها إلى البلدة على أمل يوم جديد مشرق، لكنّ الظروف قدّرت إلاّ أن تنتقل وخالتها ـ بعد فرار والدتها ـ إلى وسط البلدة، في حيّ كانت تمارس فيه الصبية وظيفتها كمربية للأطفال (مُدَرِّسَة)، وخالتها منظفة للبيوت، وهنا في هذا الحيّ بدأت أصابع الاتّهام تلاحق "زينة" وتطعنها، وهي تلوح حولها بالإدانة كما لو لم يكن لها الحقّ في التواجد على هذه الأرض، لتأتي الأقدار مرّة أخرى وتغيّر من مجرى حياتها، حيث انتقلت وزوجها "عادل" بعد وفاة خالتها إلى البيت الكبير لتعاني هناك الأمرّين، ولكنّها ما لبثت إلاّ وأن عادت بعد فترة تَدَمُّرٍ إلى قريتها، أين أخذتها الوجهة هذه المرّة إلى بيت عمّتها أخت أبيها، التي رفضت احتضانها أو الانتقال معها إلى المدينة، لتضع عودتها بعد ذلك إلى البلدة حدّا لنهاية حياتها.

كانت فتاة منبوذة منذ أن وَطَأَت قدماها هذا الوجود، لا يحميها أحد ولا يكلّمها فرد، ومن يكلّمها وهي المتّهمة قبل أن ترتكب إثما ؟! المذنبة قبل أن تقترف خطأً ؟!، لا لشيء سوى أنّه لا يوجد من يحميها، فهي وحيدة في الدنيا بلا أهل ولا سند، عاشت وماتت كذلك، رُفعت على النعش لتوارى التراب كالمنبوذ لا يسير وراءه أحد، كلّ ذلك جعل الألم بالنسبة لها شيئا عاديا، بل إنّه صار جزءا لا يتجزّأ من حياتها، الأمر الذي دفعها أكثر من مرّة للتفكير في الانتحار، لعلّه يكون حلا لها للخروج من هذه الأزمات، فلم يعد هناك شيء يشدّها إلى الحياة، حدث ذلك عدّة مرّات:

-الأولى عندما اتُّهِمت بالرذيلة وعلاقتها غير الشرعية مع مدير المدرسة التي كانت تعمل فيها كمعلّمة، تراكمت الأحداث والوقائع، وأصبحت "زينة" علكة في فم الصالح قبل الطالح من النّاس، فنسجوا حولها أحاديثا ملأوا بها خيالهم، وراحوا يزجون

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

بها أوقات فراغهم، كما انقطعت بعض الفتيات عن الدراسة بعد الحادثة مباشرة خاصة تلميذات السنة السادسة، وما زاد الجو تأزّما مقاطعة زميلاتها لها خوفا ممّا يتعرضن له بسببها، كانت كلّما مرّت بهنّ توقفن عن الحوار، فتجترّ غيظها في صمت، وتنطوي على جرحها وهي تنزف في هدوء، وكان أملها الوحيد للخروج من المحنة تحقيق الشرطة أو الطب، ولسوء حظّ الفتاة فإنّ أيّا منهما لم يتدخّل للبتّ في القضية، وتضجّ أعماقها بالصراخ في كلّ مرّة.

-الثانية لـمّا أوقعها "عادل" ابن "الهاينة" في الفخّ، حين قصدت أمّه لأخذ نصيب خالتها "العانس" من الزكاة ككلّ عام، حيث اختلى بها في البيت الكبير أين كانت والدته في الحمّام، وقدّم لها عصيرا عِوَضَ الماء البارد الذي طلبته منه، كان بداخل العصير مخدّرا، وبمجرّد سريان مفعوله حتى فعل بها ما فعل، كلّ ذلك جعلها تحمل مأساة جديدة صيّرت عرق الخيبة يتصبّب من كامل جسدها، تائهة البال تجرّ ذيل الفضيحة التي تَلَبَّسَتْهَا.

-الثالثة بعد وفاة خالتها "العانس" بسبب المرض؛ كانت سندها في الوجود، تتقاسم معها هموم الحياة ومرارة العيش، وهي قبل ذلك كانت قد فقدت أمّها التي هربت مع رجل غريب في غمرة الأفراح المجنونة عقب الاستقلال، وذلك بعد أن لقي زوجها مصرعه على أيدي العسكر الفرنسي، لتجد"زينة" نفسها وحيدة تكابد الظروف وتواجه الاتهامات والأباطيل بمفردها.

-والرابعة حينما تزوّجها "عادل" بعد محاولات كثيرة معها من أجل إجهاض الجنين، فلمّا تأكّد من فشل جميع المحاولات وانسداد كلّ الأبواب في وجهه، وخوفا من انتشار الفضيحة قَبِلَ بها زوجة، فظنّت "زينة" أنّ هذا الزواج قد يكون أول بوادر الأمل بعد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

تكدّس وتراكم الأزمات التي مرّت بها، وإذا بها تواجه أزمة أخرى لا تقلّ عن سابقاتها: سخط حماتها عليها، فهي مذ أن وَطَأَت قدماها بيت "الهاينة" وهي تُسْمعها كلاما يجرحها، فحينا تطعنها في شرفها جاهلة أنّ ولدها قد كان سببا في تلوث سمعتها، وحينا آخر تسبّها وتشتمها، الأمر الذي جعل الحياة تسودّ في عينيها من جديد.

-وأمّا الخامسة حين عرفت من عمّتها (الشخص الوحيد المتبقي على قيد الحياة من عائلتها) أنّها ليست ابنة أبيها، وأنّ والدها كان عاقرا، كان ذلك بعد عودتها إلى القرية كي تطلب من عمّتها مرافقتها إلى المدينة أم تجيء هي بـ "عادل" الذي طلب يدها للزواج إلى القرية عندها، لتصطدم بعدها بأنّها مجهولة النسب، فظهرت الخيبة من جديد على ملامحها، وانصرفت عائدة من حيث جاءت، تؤكّد لنفسها أنّه لم يبق أحد لا في القرية ولا حتّى في المدينة لا ينكرها، لذلك دفنتها في قلبها كما دفنت أشياءً أخرى عزيزة عليها من قبل.

-وكانت السادسة لمّا توجّه بها "عادل" إلى البيت الكبير، ووضعها في حجرة جانبية وأغلق دونها الباب وانصرف، حينها أحسّت بوحدة وسكون قاتلين وكأنّها لا تملك نفسها، حبيسة أربعة جدران...

كانت نهاية "زينة" مأساوية: الحرق والتفحم، الذي كان سببا في مغادرة نور عينيها إلى الأبد، ماتت وهي تعاني في صمت آلام الحروق البالغة، التي استطاعت أن تنهش سائر جسدها، ومع انطفاء روحها من الوجود دُفِنَ لغز موتها، وكانت قد أبت أن ترفع أصابع الاتّهام في وجه أي أحد، وهي المتهمة بكلّ الذنوب منذ أن وُجِدت في هذا العالم، هذه الحادثة كانت كفيلة بقلب كلّ الموازين، فلم يعرف

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

البيت الكبير منذ ذلك اليوم هدوءًا قط: عويلٌ للأشباح، نواحٌ للأرواح، دقٌّ للمطارق، أصواتٌ تتعالى، ماء الحنفية يتحوّل دمًا،...

المقاربة التداولية للنصّ:

اشتملت قصّة "أصابع الاتّهام" على نصوص حوارية كثيرة، امتدّت من أوّلها إلى آخرها، ومن بين هذه النصوص التي تحقّق فيها "مبدأ التعاون" دون أن يستدعي الحوار أي استلزام من طرف المستمع/ المخاطَب النموذجين التاليين:

في حوار بين "العانس" وابنة أختها "زينة"[20]:

ـ البرد يخترق العظام، فهلاّ أكثرت من الألبسة الصوفية!

ـ قد فعلت.

يبدو من خلال هذا الحوار القصير أنّ "مبدأ التعاون"، وجميع المبادئ الحوارية الأخرى التي تتفرّع عنه متحقّقة كلّها: لقد استخدمت "زينة" في إجابتها القدر المطلوب من الكلمات دون زيادة (مبدأ الكم)، وكانت صادقة في كلامها (مبدأ الكيف)، كما أنّها أجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال خالتها "العانس" (مبدأ المناسبة)، وكانت إجابتها واضحة موجزة (مبدأ الطريقة)، ولذلك لم يتولّد عن قولها أيّ استلزام، لأنّها ببساطة قالت ما تقصد.

وفي حوار آخر جرى بين "عادل" و"زينة" جاء فيه[21]:

ـ كيف هي خالتكِ؟

ـ مريضة باستمرار.

لم تستدع إجابة "زينة" في هذا الحوار أيّ استلزام، لكون جميع المبادئ التي تندرج ضمن "مبدأ التعاون" قد توفّرت كلّها، بحيث أجابت "زينة" إجابة دقيقة وكانت

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

مشاركتها تفيد القدر المطلوب من الإخبار دون زيادة أو نقصان (الكمّية)، وقالت ما هي متأكدة من صحته (النوعية)، وكانت إجابتها ملائمة لفحوى السؤال المطروح عليها (مبدأ الورود)، كما خلت إجابتها من الغموض، وكانت فيها مختصرة وموجزة (مبدأ الكيفية)، فهي لم تقل شيئا وتقصد شيئا آخر.

بيد أنّ هناك الكثير من النصوص الحوارية ـ كما سبقت الإشارة ـ تمّ فيها انتهاك لأحد أسس "مبدأ التعاون" ونظرا لضيق حجم البحث وصِغَر مساحته، سنقتصر ها هنا على اختيار بعض النماذج قصد استنطاق ما ورد فيها من استلزام كما يلي:

1 ـ في حوار دار بين "زينة" ورجل غريب طرق باب بيتها لينقل إليها نبأ موت والدها[22]:

ـ من قتل أبي؟

أجابها الرجل الغريب:

ـ الله أعلم يا ابنتي.. ربّما قتل.. ربّما انتحر..

فواضح أنّ ما قاله الرجل مجيبا عن سؤال الفتاة، انتهاك لمبدأ من مبادئ الطريقة وهو "الإيجاز"؛ إذ كان يكفي به أن يقول لها: لست أدري، أو لا أعلم، أو يكتفي بالعبارة الأولى التي أجابها بها وهي: الله أعلم.

2 ـ في حوار دار بين والدة "زينة" وأختها "العانس"، لمّا قرّرت والدة "زينة" الرحيل عن القرية بعد وفاة زوجها، لضيق سبل الحياة بالعائلة، سألتها أختها "العانس" قائلة[23]:

ـ إلى أين نذهب إذا هجرنا هذا المكان؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

ـ إلى حيث نجد القوت، فلم يعد يربطنا بهذه القرية البائسة شيء، بعد أن منع النّاس عنّا الصدقات، وصاروا يتحاشوننا وكأنّما يستعجلون رحيلنا، أو يتمنّون موتنا.

كانت إجابة والدة "زينة" طويلة جدّا، وبذلك اخترقت مبدأ من مبادئ الطريقة، وهو "الإيجاز" أيضا، فكان بإمكانها أن تقول: إلى حيث نجد القوت وكفى، لأنّ الظروف التي تعاني منها والدة "زينة" هي نفسها الظروف التي تعاني منها أختها "العانس"، ما دام أنّهما تعيشان تحت سقف واحد، أو بعبارة أخرى: إنّ كلّ هذه الظروف التي ساقتها والدة "زينة" من خلال إجابتها في الحقيقة لا تجهلها "العانس"، فلم يكن هناك من داع للإفصاح عنها، وبالتالي تطويل الحوار.

3 ـ في حوار آخر دار بين "العانس" وابنة أختها، لمّا قصدتا بيت العجوز المسكينة التي كانت تقيم داخل مقبرة، في كوخ مصنوع من القصب، تساءلت الصبية قائلة[24]:

ـ هذا المكان مخيف، كيف نقيم مع الموتى؟

ـ الموتى وحدهم الذين لا يزعجون أحدا.

فالاستلزام هنا واضح؛ إذ أنّ ردّ الخالة بطريقة غير مباشرة، استدعى من الفتاة أن تفهم مباشرة أنّ الأحياء لا الأموات هم الذين يؤذون ويزعجون غيرهم. وفي هذا الحوار تمّ خرق مبدأ المناسبة، صحيح أنّ جواب الخالة له علاقة بالسؤال، ولكن بطريقة استلزامية غير حرفية.

4 ـ في حوار دار بين "زينة" و"العانس" حول عجوز الكوخ التي قامت برسم أوشام مختلفة الحجم والشكل على وجه الفتاة[25]:

ـ هات خرقة مبلّلة وتعالي أمسح عن وجهك الأوشام.

ـ كنت أعتقد أنّها تريد أن تخنقني.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

ـ لا إنّها غير متوحشة، بل طيّبة جدّا، لولا نوبات الغضب التي تعاودها بين الحين والآخر.

في هذا الحوار تمّ خرق مبدأين اثنين من مبادئ التعاون، أوّلهما مبدأ الكيف الذي يقتضي ألاّ يقول المتحدّث إلاّ ما يعتقد صوابه، وألاّ يقول ما لا دليل عليه وما لا يستطيع البرهنة على صدقه، وقد انتهكته "زينة" هنا في هذا الحوار لمّا ظنّت أنّ العجوز المسكينة سَتُقْدِم على خنقها، والذي جعل "زينة" تفكّر في مثل هذا التفكير هو الحالة الجنونية التي كانت عليها العجوز قبل أن ترسم على وجهها تلك الأوشام، لتجيبها خالتها بعد ذلك مفنّدة جميع شكوكها، مخترقة في ذلك مبدأ الكمّ، الذي يقتضي هو الآخر أن تكون مشاركة المتكلّم في الحوار بالقدر المطلوب من دون زيادة أو نقصان؛ إذ كان من الممكن أن تكتفي "العانس" في حوارها هذا بكلمة لا فقط، وذلك من شأنه أن يُطَمْئِنَ الفتاة، ويزيل شكوكها تجاه العجوز.

ويستمرّ هذا الحوار الذي دار بين "زينة" وخالتها، وذلك من خلال الحديث عن حياة العجوز، فتقول "زينة" مستفهمة[26]:

ـ ومن الذي يغضبها في هذا المكان الرهيب؟

ـ لقد كانت زوجة لأحد التجّار، ولها معه أطفال، وفجأة تخلّى عنها لتجد نفسها وحيدة في العراء لا تملك شيئا.

ـ وأين هم أطفالها؟

ـ في مكان ما من الدنيا، لقد استبقاهم والدهم معه بعد أن نقلها إلى مصحّ الأمراض العصبية، وغيّر مقرّ إقامته.

ـ كان يجب أن يعيدها إليهم، فلا شكّ أنّهم بحاجة إليها.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

وقع استلزام حواري في هذا الحديث الذي دار بين "زينة" وخالتها، فحين استفهمت "زينة" من خالتها عن سبب غضب العجوز، كان على "العانس" أن تردّ عليها بالقدر المطلوب دون زيادة، ولأجل ذلك كان جوابها طويلا بعض الشيء، اخترقت فيه أحد مبادئ الطريقة وهو "الإيجاز"، فكان من الممكن أن تجيبها بقولها مثلا: ظروفها العصيبة مع زوجها، وبعد ذلك تعود "العانس" لتخرق مبدأ الكم حينما أجابت إجابة أكثر ممّا هو مطلوب منها، عندما استفهمت الفتاة عن مكان تواجد أبناء العجوز، لتذهب "العانس" أبعد من ذلك وتروي لـ"زينة" قصّة افتراق العجوز عن أولادها، بدل أن تقول لها بكلّ بساطة على سبيل المثال: هم مع والدهم، أو ظلّوا مع والدهم...

5 ـ في حوار دار بين نساء الحيّ الذي انتقلت إليه "زينة" قصد الالتحاق بوظيفتها كمُدَرِّسَة، كنّ كلّما أبصرنها تدبّ في الشارع يتهامسن حولها[27]:

ـ من تكون هذه اللاجئة أيضا؟

ـ يقال أنّها معلّمة.

ـ تبدو قروية، من أين جاءت؟

ـ لا أدري، كلّ ما أعرفه أنّها تعمل بالمدرسة الجديدة خارج البلدة.

ـ إنّها تعيش مع تلك المرأة، تصوّري بمفردهما.

ـ ربّما كانت لقيطة جاءت بها من أحد الملاجئ وربّتها.

في هذا الحوار تمّ خرق لمبدأ من مبادئ التعاون القائمة بين المتكلّم والمخاطَب، وهو مبدأ الكيف، فهؤلاء النسوة يتهامسن بأمور بينهنّ لا يملكن لها دليلا، ولا يستطعن البرهنة على صدق ما يذهبن إليه، فحكمن على الفتاة بمجرد هيأتها وشكلها بأنّها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

قروية دون دليل ملموس، وقالوا عنها أنّها معلّمة ـ وإن كان ذلك صحيحا ـ إلاّ أنّ قولهنّ يفتقر للحجّة، كما أنّهنّ اتَّهَمْنَهَا بكونها لقيطة بمجرد أنّهنّ شاهدنها وخالتها تعيشان بمفردهما في بيت يخلو منه الرجال.

6 ـ في حوار جرى بين "العانس" و"زينة"[28]:

ـ لِمَ تناولت فطورك واقفة؟

ـ معي مفتاح الباب الخارجي للمدرسة، ويجب ألاّ يسبقني أحد.

ردّت "زينة" على خالتها ردّا غير مباشر، بمعنى أنّها لم تجبها على السؤال التي طرحته عليها "العانس" بصفة مباشرة، وهذا يستلزم من الخالة أن تفهم أنّ "زينة" على عجلة من أمرها، وعليها أن تكون أوّل الواصلين إلى المدرسة كونها هي التي تملك مفتاح الباب الخارجي، وفي هذا الحوار تمّ خرق لشرط من شروط "مبدأ التعاون" ألا وهو: مبدأ المناسبة أو الملاءمة.

7 ـ في حوار دار بين "زينة" ومعلّمة أخرى زميلة لها في المدرسة، تقول المعلّمة[29]:

ـ أتدرين بِمَ يتهامس التلاميذ في الخارج؟

ـ التلاميذ؟ آه.. لهذا رفضوا الدخول وبقوا تحت الأمطار.

نلمس في إجابة "زينة" على سؤال زميلتها استلزاما تمّ فيه خرق لمبدأ المناسبة، وكأنّ "زينة" تجيب المعلّمة بسؤال آخر فيه نوع من الاستهزاء واستصغار الأمر، كان من المفترض أن تردّ على سؤالها بـ: لا، أو لست أدري، أو ما شابه ذلك، بيد أنّ المعلّمة من جهتها قد أدركت في نفسها على ضوء ما سمعته من زينة، ومن نبرة صوتها وكذا من ردّة فعلها أنّ

ما يقال في الخارج مجرد كلام لا أساس له من الصّحة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

8 ـ في حوار دار بين "عادل" و"زينة"، بعد أن اختلى بها في بيت "الهاينة" والدته، وفعل بها ما فعل[30]:

ـ لِمَ فعلتَ بي هذا؟ لِمَ حطّمتني؟

ـ أنا أعرفُكِ جيّدًا، فلا داعي للتمثيل.

ـ ماذا تعرف عنّي؟

ـ لا داعي للنبش في القبور، إنّني أخشى.. فضحكِ.

ـ بل قل ما تعرفه؟

ـ عرفت أنّكِ وضعتِ لقيطًا، وأنّ أباكِ خان الوطن، وأنّ أمّكِ تخلّت عنكِ وهربت مع عشيقها.

في هذا الحوار استلزام واضح، تمّ فيه خرق لمبدأ المناسبة، يبدو "عادل" من خلاله متهربا وكأنّه يدور في حلقة لا بداية ولا نهاية لها، وهو في إجابته دائما يُشعر السائل بالذنب من جهة والحيرة من جهة ثانية، وبوجود شيء مخفي يستدعي السائل لفهمه، ولولا إصرار الفتاة على معرفة ما يعرفه عنها سواءً أكان ذلك اختلاقا يدّعيه هو كغيره ممّن حولها أم صحيحا، لَمَا صرّح في نهاية هذا الحوار لينهي الشكوك التي كانت تراود ذهن الفتاة وتدفعها إلى الاستلزام، لتجيبه في النهاية بقولها مفنّدة بطريقة أو بأخرى كلّ ما ذهب إليه: سوف تدفع الثمن، ولن تنفعك مراوغاتك.

9 ـ في حوار آخر دار بين "عادل" و"زينة" بعد اللقاء الأول الذي جمعهما في بيت "الهاينة" جاء فيه[31]:

ـ ألا تزورينني؟

ـ انتظر حتى تذهب والدتك إلى الحمام!

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

إنّ شرارات التهكّم والسخرية تنبعث واضحة جليّة من خلال ردّ الفتاة على سؤال "عادل"، وهذا ما يستلزم منه أن يفهم من ردّها أنّها ترفض زيارته، وأجابته هذه الإجابة مستهزئة به، لأنّه يوم التقى بها وفعل بها ما فعل كانت والدته يومها في الحمام، وفي هذا الحوار خرق لمبدأ المناسبة، يتبدّى ذلك من خلال الإجابة غير المباشرة لسؤال "عادل"، وكأنّه توبيخ بشكل غير معلن.

10 ـ ضمن حوار دار بين "زينة" وجارة لها راحت تستنجد بها وبزوجها، من أجل نقلها إلى المستشفى في ليلة أيقظتها آلام حادّة، مزّقت رحمها وجعلت الدماء تتدفّق تحتها دفقات سريعة، جاء في الحوار[32]:

ـ ماذا تريدين منّا في هذا الوقت؟

ـ أرجو العفو.. أعرف أنّي أزعجتكم، ولكنّني في حال سيئة للغاية، حبذا لو تنقلوني إلى المستشفى.

ـ وهل رأيتِ سيارة لنا متوقفة عند الباب؟

في هذا الحوار خرق لمبدأ المناسبة، يظهر ذلك جليّا من خلال قول الجارة: وهل رأيتِ سيارة لنا متوقفة عند الباب؟، وكأنّ الجارة هنا تسخر من الفتاة؛ ربّما لأنّ الوقت متأخر جدّا، أو لربّما هو الإزعاج الذي جعلها تتصرّف معها مثل هذا التصرّف، وإن كانت لا تملك سيارة لتأخذها بها فعلا، فتصدّها بهذه القوّة متهكّمة أيّاها، والدليل على ذلك هو إغلاق الجارة للباب في وجه الفتاة دون منحها فرصة للمزيد من الحديث، فالجارة قالت شيئا وتقصد شيئا آخر، الأمر الذي يجعل "زينة" تفهم بأنّ الجارة ترفض مساعدتها.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

11 ـ في حوار حاد دار بين "زينة" وحماتها "الهاينة"، بعدما تزوّجها "عادل" وانتقل بها إلى البيت الكبير[33]:

ـ أليس عيبًا ما تفعلين؟ ما الذي سيقوله النّاس إذا علموا بالأمر؟

ـ أنفقنا على تربيته وتعليمه ليرتبط بواحدة مثلك لا يعرف لها أصل.

ـ أغلقي الباب على الأقل، حتى لا يسمعك النّاس وتفجّري كما تشائين.

ـ وهل مثلك يعطي اعتبارًا للنّاس، وأنت غارقة في العار؟

ـ ابنك هو من اعتدى عليّ.

ـ وعلى أيّ رصيف عثر عليك؟

ـ في بيتكم.

ـ وأنتِ ما الذي أخذك إلى بيتنا؟

ـ أنتِ التي بعثتِ لخالتي، وكانت مريضة فجئت.

ـ كنت أريد أن أعطيها الزكاة.

ـ لقد ماتت ولم تعد في حاجة إلى صدقات أحد.

ـ صرتِ تعيشين هنا بمفردك، ومع ذلك تلصقين التهمة بذلك المغفّل.

سيطر على هذا الحوار المعنى المبطّن وطابع السخرية والازدراء التي كانت توظفه "الهاينة" في كلّ مرّة للردّ على كنّتها، وفي ذلك خرق لمبدأ المناسبة من جهة؛ يتّضح ذلك من خلال الأسلوب غير المباشر التي اعتمدته "الهاينة" أثناء حديثها مع "زينة"، وكذا من جهة أخرى انتهاك لأحد المبادئ التي يقوم عليها مبدأ الطريقة وهو "الغموض" في التهم والإهانات الموجّهة إلى "زينة" من قبل "الهاينة" في كلّ مرّة وأخرى؛ فـ "الهاينة" في هذا الحوار كانت تردّ دائما على "زينة" باتّهام ما، فهي حينما قالت لها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

بشكل غير مباشر: وهل مثلك يعطي اعتبارًا للنّاس، وأنت غارقة في العار، فيه تلميح لـ "زينة"، وكأنّ هذه الأخيرة منغمسة في الرذيلة والفاحشة لا تخرج منهما، وأنّ النّاس كلّهم يدركون ويعلمون ذلك.

وقولها لـ "زينة": وعلى أيّ رصيف عثر عليك؟، سؤال يوهم لـ "زينة" وكأنّها بنت متسكعة من بنات الشوارع اللواتي يتخذن الأرصفة والطرقات مكانا لهنّ لاصطياد الرجال أمثالهنّ!

وقولها لها أيضا في آخر الحوار السابق: صرتِ تعيشين هنا بمفردك، ومع ذلك تلصقين التهمة بذلك المغفّل، وفي هذا الكلام معنى كبير وخطير جدّا في حقّ الفتاة؛ فهو اتّهام آخر غير مباشر يطعن في شرف "زينة" وعرضها، فـ "الهاينة" هنا قالت كلاما لا تقصد منه ما هو ظاهر في لفظه، وإنّما هي تقصد شيئا آخر، إذ هو تلميح يستدعي الفتاة أن تفهم أنّ الولد الذي تدّعيه هي ـ على حسب تخمين الهاينة ـ على أنّه حفيدها ابن ولدها "عادل" إنّما هو لرجل آخر أقامت معه علاقة سرّية، ما دام أنّها تقضي نهارها كلّه متسكعة في الطرقات، وأنّها تعيش لوحدها في ذلك البيت على حدّ تعبير "الهاينة".

12 ـ في حوار آخر دار بين "زينة" وعمّتها لمّا قصدتها بعد هروب والدتها ووفاة خالتها، تطلب منها أن تظلّ معها في القرية، أو تصاحبها إلى المدينة، حتى لا تشعر بالوحدة، وهو حوار طويل جاء منه[34]:

ـ وأنا ما دخلي فيما وقع بينكم في الماضي البعيد؟

ـ أنتِ ابنتها، ولن تفعلي إلاّ كما فعلت، حبّذا لو تذهبين فورا ولا تعودين أبدا، فلقد نسيكم النّاس.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

ففي ردّ العمّة خرق لمبدأ الطريقة، وذلك بسبب طول الكلام، فهي هنا تلوم والدة "زينة" لأنّها كما تدّعي قد كانت سببا في موت أخيها والد "زينة"، وكان من الممكن أن يكون الجواب بكلّ بساطة: لأنّك ابنتها، لكنّ العمّة فضّلت أن تطيل الردّ حتى تسقط على الفتاة لومها لوالدتها، وتوضّح لها بأنّ البنت غالبا ما تكون نسخة عن أمّها، فكما هي كانت سببا في موت والدك، ثمّ هربت مع رجل آخر وجلبت للعائلة العار، فكذلك ستكونين أنت.

13 ـ في حوار دار بين المحقّق رجل الأمن و"زينة" بعد تعرّضها للحرق[35]:

ـ هل تتّهمين أحدا بمحاولة قتلك؟

ـ إنّهم يرفضون تواجدي معهم، وخاصة حماتي، ولكنّها كانت طوال النهار غائبة عن البيت.

ـ ألا يحتمل أن يكون زوجك هو المتسبّب في حرقك؟

ـ لقد ظلّ هو الآخر غائبا عن البيت طوال النهار.

ـ من كان معك قبل وقوع الحادث؟

ـ ظللت طيلة النهار وحيدة، وحين تعبت من وحدتي استلقيت على فراشي قبل أن يجيء زوجي ويستلقي بجانبي ثمّ يولع القداحة.

ـ ولدى اشتعال النيران بثوبك، من استجاب لنجدتك؟

ـ كثيرون، ولكنّني لم أميّز أحدا، فقد كنت منشغلة بمحنتي.

ـ حاولي أن تتذكري، فأنت لم تكونِ وحدك في البيت كما خيّل إليك.

ـ مستحيل، لقد كان البيت ساكنا وخاليا طوال اليوم.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

حدث في هذا المقطع من الحوار خرق لعدد من القواعد والمسلّمات التي ينبني عليها "مبدأ التعاون"، وأوّل هذه المبادئ: مبدأ المناسبة؛ فالمحقّق لمّا سأل "زينة" عن الشخص الذي تتّهمه بمحاولة قتلها، ردّت عليه بشكل غير مباشر بطريقة لا تتناسب مع طبيعة السؤال المطروح، خاصة وأنّ التحقيق يقوم على الوضوح والإيجاز، ولا يمكن له أن يجيز المراوغات والغموض، فهي في البداية وكأنّها تريد أن تقول بأنّها تتّهم حماتها لأنّها أكثر الأشخاص يرفضون تواجدها بينهم، ولكنّها ما لبثت وأن غيّرت وجهتها حينما أكّدت غياب حماتها عن البيت في اليوم الذي نشب فيه الحريق.

ومن المبادئ أيضا التي تمّ خرقها في الحوار السابق: مبدأ الطريقة، ويتمثّل ذلك في انتهاك مبدأ الإيجاز وكذا مبدأ الكيف، يتّضح ذلك من خلال قول "زينة" ردّا على سؤال رجل الأمن: ظللت طيلة النهار وحيدة، وحين تعبت من وحدتي استلقيت على فراشي...الخ، فهذا الردّ غير موجز، فكان بمقدرتها أن تقول كنت وحدي، أو وحيدة أو وحدي وكفى،...، وهو في نفس الوقت ردٌّ كاذب، لأنّها تقول شيئا غير صحيح، فـ "زينة" في اليوم الذي احترقت فيه لم تقضي النهار بمفردها، وإنّما كانت مع الكنّة الكبرى في غرفتها، وانتقلت معها بعد ذلك إلى أرجاء البيت الكبير ومنها إلى الجناح المهجور في الحديقة أين كانت تقيم الكنّة الكبرى.

وما يقال عن هذا الكلام ينطبق على ردٍّ آخر لها، والتي تقول فيه مجيبة على سؤال المحقّق: مستحيل، لقد كان البيت ساكنا وخاليا طوال اليوم، فهي هنا خرقت مبدأ الكيف حينما قالت كلاما غير صحيح، ربّما حتى تخفي أمر الزيارة السرية للكنة الكبرى، ولا تفضحها أمام الجميع، ولاسيما حماتها "الهاينة".

الخاتمة:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

نخلص في نهاية هذه الورقة البحثية إلى القول: إنّ ظاهرة الاستلزام الحواري بوصفها من أبرز الظواهر التي تميز اللغات الطبيعية، وذلك على اعتبار أن عملية التخاطب كثيراً ما تحمل معاني عديدة لا تنحصر في ما تدل عليه صيغتها الصورية، لاسيما وأن الاستلزام الحواري أو التأويل الدلالي للنصوص، يحمل في طيّاته معاني ظاهرية و وأخرى باطنية مضمرة، يحددها السياق العام لقراءة النص، قد استطاعت أن تكشف عن نمط خاص من التواصل، يمكن نعته بـ: "التواصل غير المعلن"، الذي يقوم على تعاقد شبه ضمني وتفاهم خفي بين المتكلم والمخاطب في إبلاغ وتأويل الخطابات، ولعلّ هذا ما حاولنا الوصول إليه من خلال هذه الدراسة لواحدة من الأعمال القصصية الجزائرية، والتي تقوم أساسا على الطابع الحواري الممارس من طرف شخصيات العمل.

الهوامش:

1) ـ طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م، ص27.

2) ـ خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط2، 2012م، ص54.

3) ـ صابر محمود الحباشة: الأسلوبية والتداولية مداخل لتحليل الخطاب، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1432هـ/2011م، ص51.

4) ـ دلاش الجيلالي: مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها، تر: محمّد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1996م، ص 01.

5) ـ المرجع نفسه، ص ن.

6) ـ محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، الاسكندرية، دط، 2002م، ص12.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

7) ـ مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص15.

8) ـ ينظر: سحالية عبد الحكيم: التداولية النشأة والتطوّر، مجلّة المخبر– أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد5، مارس 2009م، صص9، 19.

9) ـ ينظر: فيليب بلانشته: التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007م، ص ص17– 18.

10) ـ صابر محمود الحباشة: مرجع سابق، ص53.

11) ـ شينر رحيمة: تداولية النص الشعري "جمهرة أشعار العرب نموذجا"، إشراف: عبد القادر دامخي، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في الأدب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 1429هـ، 1430هـ/2008م، 2009م، ص149.

12) ـ المرجع نفسه، ص152.

13) ـ نفسه، ص ص152– 153.

*) ـ يسمي الاستلزام الحواري أيضا بـ: الاستلزام الخطابي أو التخاطبي، المحادثة، قانون الخطاب،...

14) ـ ينظر: محمود أحمد نحلة: مرجع سابق، ص ص32– 33.

15) ـ ينظر: المرجع نفسه، ص ص33– 34، وكذا: أحمد المتوكل: "الاستلزام التخاطبي": بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة، (مقال) ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة لـ: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، وجدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1432هـ/2011م، ص295.

16) ـ نواري سعودي أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط1، 2009م، ص ص30– 31.

17) ـ ذهبية حمو الحاج: قوانين الخطاب في التواصل الخطابي، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، دار الأمل، العدد2، ماي 2007م، ص222.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404

18) ـ أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 1987م، ص26.

19) ـ جيني توماس: المعنى في لغة الحوار مدخل إلى البرجماتية (التداولية)، تر: نازك إبراهيم عبد الفتّاح، دار الزهراء، الرياض، السعودية،
ط1، 1431هـ/2010م، ص ص82- 83.

20) ـ جميلة زنير: أصابع الاتّهام، دار نُوبِليس، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص47.

21) ـ المصدر نفسه، ص56.

22) ـ نفسه، ص13.

23) ـ نفسه، ص14.

24) ـ نفسه، ص18.

25) ـ نفسه، ص21.

26) ـ نفسه، ص22.

27) ـ نفسه، ص39.

28) ـ نفسه، ص47.

29) ـ نفسه، صص48 -49.

30) ـ نفسه، ص59.

31) ـ نفسه، ص ص61 -62.

32) ـ نفسه، ص 73.

33) ـ نفسه، صص78 -79.

34) ـ نفسه، ص 83.

35) ـ نفسه، صص 113، 115.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1404